

الكتابة والفاقدة أي معنى ، الذي يبقى بمعزل عن كل دروب الصيرورة الاجتماعية الإيديولوجية ، يمكنه ألاّ يحس بهذه الفعالية اللغوية الاصطفائية وبوسعه بالتالي أن يبقى على اطهئانه واسترخائه في يقينية لغته وحتييتها .

لكن حتى مثل هذا الإنسان لا يتعامل ، في الواقع ، مع لغة واحدة ، بل مع لغات . لكن مكان كل من هذه اللغات ثابت متأصل وفوق الشك ، وانتقاله من لغة إلى أخرى محتم سلفا وغير واعٍ كانتقاله من غرفة إلى أخرى. فهذه اللغات لا تتصادم فيما بينها في وعيه، وهو لا يحاول الوصل بينها، كما لا يحاول النظر إلى لغة بعين لغة أخرى .

وهكذا كان الفلاح الأمي البعيد كل البعد عن أي مركز ، والغارق بسادجة في حياة الجهود والثبات التي لا يمكن أن تتزعزع في وعيه ، يعيش في عدّة نظم لغوية في آن : كان يصلي لربه بلغة (اللغة السلافية الكنسية) ، وينشد الأغاني بثانية ، وفي أسرته يتكلم ثالثة ، وحين بدأ يملي على المتعلّم التماساً لتقديمه إلى مركز المنطقة حاول التكلم برابعة (بلغة رسمية سليمة ، لغة العرائض) . لكن هذه كلها لغات مختلفة حتى من وجهة نظر سماتها الاجتماعية اللهجية المجردة .

إلا ان هذه اللغات كلها لم تكن مترابطة فيما بينها حواريا في وعي الفلاح اللغوي ؛ كان ينتقل من لغة إلى أخرى دون تفكير أو روية ، كان ينتقل بشكل آلي : فكل لغة فوق الشك في مكانها ، ومكان كل منها أكيد، لا شك فيه . فالفلاح لم يكن قد تعلّم بعد النظر إلى اللغة (وعالم الكلمات المقابل لها) بعيني اللغة الأخرى (إلى لغة حياته اليومية وحياته عالمه بعيني لغة الصلاة أو الأغنية — وبالعكس) (١) .

١ - نحن هنا نبسط الأمر قصداً : فالفلاح كان يعرف إلى حد ما كيف يصنع هذا ، وكان يصنعه .